مختارات وذكريات

رأيت أن أجمع بين الموضوعين فى حديث واحد . لأجعل الذكريات معرضًا للنقد وبيان وجه الخلاف بين النظرة القديمة إلى الشعر والنظرة الحديثة إليه ، وهى النظرة التى شرحنا الغرض منها حين دعونا منذ ثلاثين سنة إلى تجديد الشعر وتجديد الأدب على التعميم .

وقد حاولت فى الاختيار من دواوين شعرى أن أتغلب على صعوبتين : إحداهما أننى أختار من ثمانية دواوين تشتمل على مئات القصائد ، ومن قصائدها ما يبلغ المئات من الأبيات ...

والصعوبة الثانية أن الرجل الذى يفاضل بين قصائده كالرجل الذى يفاضل بين أبنائه وبناته ، وليس الأب – فى أكثر الأحيان – خير حكم بين ذريته ، فإنه قد يعطف على الضعيف منهم ويترك القوى لشأنه مستغنيا عن عطفه و حنانه .

وقد تغلبت على الصعوبتين بالاكتفاء من الدواوين الثمانية بالثلاثة الأخيرة منها وهى (هدية الكروان) و (عابر سبيل) و (أعاصير مغرب) وحكمت فى ذلك تاريخ الصدور وحده ، غير معتمد على المفاضلة والتفضيل .

ثم لجأت مع صديق إلى نوع من القرعة فى الاختيار بين أرقام الصفحات بغير نظر إلى المقاصد والأبواب ، فكان عمل المصادفة هنا أرجح من عمل الاختيار .

أما الذكريات الأدبية فإننى أسوق منها ما يدل على جوانب الاختلاف بين المدرستين ... مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين كما شرحناها مع زملائنا فى الكتب أو المقالات .

زرت السودان منذ سنوات ثلاث فدعانى نادى الخريجين فى الخرطوم إلى سهرة حافلة ، ظننت للوهلة الأولى أنها سهرة أدب وفكاهة ، تجمع بين الطرائف والمحاورات والأناشيد أو الألعاب التى يتسلى بها المهذبون فى سهرات الأندية .

ولكننى لم أقض نصف ساعة من السهرة حتى علمت أننى أنا موضوع السهرة الوحيد أو ضحيتها الوحيدة ! فمن نشيد الافتتاح إلى الأبيات التى تغنى بها المنشد الأديب إلى المحاضرات والمساجلات - لا شىء غير العقاد الشاعر أو العقاد السياسى أو العقاد الأديب،أو العقاد الإنسان ، أو العقاد المارد الجنى الذى يتشكل بتلك الأشكال والأقانيم .

صبرت على هذه الحملة المنظمة بضع ساعات . فلما انتهت ووجب أن أقول كلمة قبل الختام .. قلت : « أيها الإخوان .. هبوها تحية فلابد أن أحييكم بمثلها أو بأحسن منها ، أوهبوها مكيدة فإننى ممن يدينون بعقيدة العين بالعين والسن بالسن

والجروح قصاص ، ولست ممن يدين بالتجاوز والصمت فى مثل هذا المقام ..

أيها الإخوان .. من وضعنى على المشرحة سأضعه الآن على المشرحة بعينها ، وكما قال فى سأقول فيه .. وواحدة بواحدة جزاء » .

وكان من خطباء الحفلة أديب ألمعى تكلم عن دواوينى فأعجبتنى منه لفتات نافذة إلى بعض الدلالات النفسية ، ولاحظ فيما لاحظه أننى أحب أن أقول غير ما قاله الأقدمون ، وأننى أخالف المألوف المتفق عليه استقلالا بالرأى وطلبًا للمخالفة ، ولهذا أصف الحسان بغير أوصافها المعهودة وأبتدع معانى من الغزل تناقض المأثور عن جميع الشعراء ، ومما استشهد به الأديب على ذلك أن الشعراء جميعًا يصفون ليلة الوصل بالقصر ويقولون إنها تمر من مغربها إلى فجرها كلمح بالبصر .. إلا العقاد فإنه يصفها بالطول ويقول فى وصفها ..

طالت ولا غرو فالجنات خالدة وفى الوصال من الجنات ألوان فلما تناولت هذه الملاحظة بالرد والمناقشة قلت : إن شعراء العربية جميعًا أحبوا امرأة واحدة من أقدم عصور الجاهلية إلى القرن التاسع عشر للميلاد . فالعيون التى يصفها امرؤ القيس هى العيون التى يصفها ابن زيدون .. والقوام الذى افتتن به النابغة الذبيانى هو القوام الذى افتتن به العباس بن الأحنف ،

والثغر الذى قبله عمر بن أبى ربيعة هو الثغر الذى قبله بهاء الدين زهير ، وربما عاش حتى قبله ابن الساعاتى من ثمانين سنة .. والبكاء من الهجر هو البكاء ، والشكوى من خلف الوعود هى شكواه فهل ألام إذا بحثت لى عن امرأة أصفها غير هذه المرأة التى أحبها ألف رجل أو يزيدون ..

واستطردت من ذلك إلى المديح والهجاء والرثاء فقلت .. إن الشعراء الأقدمين مثلاً يرثون عظيمًا واحدًا قلما تختلف صفاته بين شاعر وشاعر . فما حاجة هذا العظيم إلى رثائى وقد شغل الشعراء ألف سنة برثائه .

أما ليلة الوصل وطولها وقصرها فقد كان تفسيرى للمعنى الذى قصدته أن الشعور الإنسانى يوصف من جوانب متعددة لا من جانب واحد . فيصح أن توصف ليلة الوصل بالقصر لأن العاشق لا يود أن تطوى ولا يستريح إلى انقضائها . ولكن الليلة التى تملأ عمرًا طويلاً بذكرياتها وبها يستعاد فى الخاطر من لذاتها وأحاديثها قد توصف بالخلود على هذا المعنى وقد تطول فى صورتها النفسية حتى تعدل وحدها أيام الحياة ولياليها .

لهذه المناسبة أقول (إن آفة الشعر القديم فى جملته هى قلة الملامح والقسمات) فلا تفرقة فيه بين ممدوح وممدوح ولا بين معشوقة ومعشوقة ولا بين غرام وغرام ولا بين منظر ومنظر ، وإنما يتفاوت الشعراء على الأغلب الأعم ، بحظهم من البلاغة فى

تكرير الوصف الواحد مرات بعد مرات ، وأجيالاً بعد أجيال .

أما الذى نريده نحن فهو تمييز هذه الملامح بين جميع أطوار النفوس الحية . لأن الحياة لا تكرر ملامحها وإنما تكررها القوالب المصنوعة التى تفرغ فيها التماثيل المحكية . وقد تكون هذه التماثيل أجمل صورة فى مرآى العين ولكنها لا تستجيب لشعورك بها استجابة الأحياء .

وفى الجزء الرابع من ديوانى – أشجان الليل – أبيات تصف حالة المعشوقة التى تريد من عاشقها ألا يحاسبها على الوفاء وأن يستريح من شكوكها ليستمتع بها غير حافل بخيانتها .. وفى هذه الأبيات أقول :

تريدين أن أرضى بك اليوم للهوى ... وأرتاد فيك اللهو بعد التعبد
وألقاك جسما مستباحا وطالما ... لقيتك جم الخوف جم التردد
رويدك إنى لا أراك مليئة ... بلذة جثمان ولا طيب مشهد
إذا لم يكن بد من الحان والطلى ... ففى غير بيت كان بالأمس مسجدى

فلما صدر ديوانى الأخير (أعاصير مغرب) كانت فيه الأبيات التالية :

لا تخدعينى يابنية ... بالوفاء من اللسان
خنا وخنت ولا أقو ... ل سلى فلانة أو فلان
ذهبت خيانتنا معًا ... والآن نحن الباقيان

فإذا بناقد أديب يقول فى نقد هذه الأبيات وأمثالها .. أين هذا من ذاك وكيف نفرق بين نغمة الديوان الجديد فى هذا المعنى ونغمة الديوان القديم .

إن ناقدنا الفاضل كمن يضع صورتين لرجل واحد : صورة فى العشرين وصورة فى الخمسين ثم يقول .. أين هذا من ذاك ؟ وأين الرجل الذى نراه هنا من الرجل الذى نراه هناك ؟

وإنما سرت إلى الناقد عادة النظر إلى نقد القوالب أو نقد النماذج فنسى أن الشعور المطبوع يتغير بين سن وسن ، وبين معشوقة ومعشوقة ، وبين آداب فترة وآداب فترة أخرى ، وبين عاطفة وعاطفة ، فلابد فيه إذن من اختلاف التعبير واختلاف التصوير .. وهذه النظرة فى نقد الشعر والشعراء هى التى نريد أن نصححها بما نسميه تصوير (الملامح) المختلفة على اختلاف الأحوال والشخوص والموضوعات ..

ونظمت منذ عشرين سنة قصيدة قلت فيها أصف بعض الحسان :

ذهبى الشعر ساجى الطر ف حلو اللفتات

ونظمت هذا المعنى قبل ذلك فإذا ببعض الناقدين يتصايحون .. إن هذا الوصف معيب لأن شعراء العربية لم يستحسنوا الشعر الأصفر وفضلوا عليه سواد الشعر فى النساء المعشوقات ..

ومثل هذا النقد لا غرابة فيه إذا أخذنا بالنماذج والقوالب وتجاوزنا عن الملامح والشيات ، لأن الشاعر - عند أصحاب النماذج - إنما يصف النموذج المتفق عليه ولا يصف ما يحبه أو يستحسنه أو يراه .

وهنا مفترق الطريق بين المدرستين : مدرسة الأقدمين ومدرسة المحدثين . فالشاعر على الطريقة القديمة نسخة من (كتاب إنسانى) واحد ، وإن كان أحيانًا نسخة مصقولة الورق محكمة التجليد نظيفة الطبع جميلة الرواء . أما الطريقة العصرية فينبغى أن يكون كل شاعر فيها كتابًا مستقلا بألفاظه ومعانيه وملامحه وشياته . ولا ندعى أن هذا الكتاب أجمل من تلك النسخة فى جميع الأحوال وإنما ندعى فضل الاستقلال وليس هو بقليل فى سجل الأفضال .

ننتقل من هذه الذكريات والملاحظات إلى المختارات بغير تبويب ولا انتقاء ولا أدعى لها كما قدمت فضلاً غير أننى أعبر بها عما وجدته فى ذات نفسى وإننى لا أحكى بها أحدا غيرى ، وقد تحسب لى بعد هذا أو تحسب على كما شاء القراء .

الصدار

هذه القطعة فى وصف هدية وهى صدار - أو صديرى - مما يلبس فى الشتاء نسجته يد عزيزة :

هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك

هنا هنا عند قلبى يكاد يلمس حبى
وفيه منك دليل على المودة حسبى
ألم أنل منك فكرة فى كل شكة إبرة
وكل عقدة خيط وكل جرة بكرة

* * *

هنا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك
والقلب فيه أسير مطوق بحصارك ...

* * *

هذا الصدار رقيب على الفؤاد قريب
سليه ، هل مر منه إلى طيف غريب ؟

* * *

نسجته بيديك على هدى ناظريك
إذا احتوانى فإنى مازلت فى أصبعيك

* * *

بيت أجرة

وفى القصيدة التالية بيت من بيوت السكن بالأجرة يتحدث عن ساكنيه :

بنى الإنسان لن أحفل فى دهرى بإنسان
ألم أعرفكم طرًّا فلم أسعد بعرفانى
أتانى أول القوم وما استوفيت بنيانى

وما أرهفت آذانا ولم آنس بسكان
وأصغيت على مهل فطاشت كل آذانى
هما زوجان أو شيطا نة لاذت بشيطان
وقد عاشا وفيين بتقدير وحسبان
وراحا - هكذا يحكون - فى روح وريحان
وما أبصرت من هذا ولا من ذاك فى آن
سوى خوانة خرقا ء تقرى عرق خوان
إذا ما ضحكا يوما على غش وبهتان
حسدت البيد والأطلا ل فى غيظى وكتمانى
وأشفقت من النقمة أن تهتز أركانى

* * *

وجاء الساكن الثانى وبئس الساكن الثانى
يراه الناس ذا مال وأفراس وغيطان
وقد شوهنى بخلا وأعرانى وأعيانى
وقد صيرنى سجنا ومنه كان سجانى
فلما طال بى عهدا ولم أسعد بهجران
وددت لو أن لى فى كـ ـل جحر ألف ثعبان
بديلا منه أرضاه وأحبوه بغفران
وأنفث سما أو يتـ ـقى شرى ويخشانى

إلى أن آذن أجرى ولم يظفر بنقصان
فأخلانى ولن أنسى سرورى يوم أخلانى

* * *

وكان الساكن الثالث ذا عز وسلطان
فما ارتبت بأن العز والذلة سيان
وما ألفيته إلا لئيما جد غفلان
ضعيفًا يستر الضعف بطغيان وعدوان
وكم أذعن للطاغى عليه شر إذعان
إذا ما لقى النا س بكبر منه طنان
فما أصغر ما ألقاه منه بين جدرانى

* * *

وأما رابع القوم ... فذو علم وتبيان
حشا بالورق اليابس والأخضر حيشانى
فما لى موضع فى الأرض أو من فوق عمدان
وما لى مطبخ أو مخدع أو بهو ضيفان
ولا زاوية إلا ... وفيها الكتب تلقانى
أبى للنفس دعواها ولم يسمع لجثمان
فلا سهرة أحباب ولا جلسة ندمان
فما أجهله بالخلق ذاك العالم العانى
أبين الناس يحتاج إلى علم وبرهان

وهم عميان ظلماء سروا فى إثر عميان
كثير لك يا إنسا ن فى دنياك عينان

* * *

وأما الخامس الجانى فناهيك بشهوان
فما زودنى إلا ... بأعطاف وأبدان
وهتاف بألحان وسمار على الحان
إذا أمسيت مسانى بأشكال وألوان
على الأبواب مايرضيك من حسن وإحسان
ومن صون لأسماع ومن غض لأجفان
فلا تنظرهم ثمة وانظر بين أحضانى
فيا لله كم فى الأرض من غى وغيان
وكم فى القوم من مخدوع آباء وإخوان
وأزواج وأصهار وخلان وأخدان
لو أنى قلت ما أدرى لهدوا كل أركانى
فنعم الصمت والحكمة يا صخرى وصوانى

يوم لقاء

وفى الشوق إلى يوم لقاء ..

شوقى إليك يكاد يجذب لى غدا من وكره ويكاد يطفر من دمى
أسرع بأجنحة السماء جميعها إن لم يطعك جناح هذى الأنجم
ودع الشموس تسير فى داراتها وتخطها قبل الأوان المبرم

ما ضر دهرك إن تقدم واحد يا يوم من جيش لديه عرمرم

* * *

الحرب

قالوا هى الحرب فصد بـه الشفـاء يؤمـل
قلنا نعم فصد عرق حى وإعفـاء دمـل

إلى تمثال سعد

ومن قصيدة أخاطب فيها تمثال سعد زغول :

الروح فى وادى الكنانة حائم وجلال شخصك فى النواظر قائم
ماغاب منك سوى مثال عارض يمضى ويخلفه المثال الدائم
شرفا أبا الفلاح ما استفتحت من همم وما استتلى بعزمك عازم
لك لا تزال ولن تزال رسالة ما للعظائم إن بدأن خواتم